جامعة باجي مختار ـ عنابة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

د نجاة عرب الشعبة

nadjettearab@yahoo.fr

محاضرات في مقياس: النص النثري القديم

السنة الأولى ماستر ـ تخصص ـ أدب قديم

السنة الجامعية 2022/2021

فن الترسل في العصر الأموي

لاشك أن أدب الرسائل قديم جدا وله صفحات مضيئة في تاريخ الأدب العربي وقد أُلِّفَتْ فيه كتب ودواوين كثيرة ونهج كل أديب منهجا يختص به. والرسائل فن أدبي ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة عندما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمة العطاء في مختلف الميادين والمجالات. وهو فن نثري يُظْهِرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية. ولم تكن الكتابة شائعة بين العرب في الجاهلية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلة الدواعي إليها .

1. فن الترسل في العصر الأموي:

عندما آل الحكم إلى بني أمية وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ ديوان الرسائل، هذا الديوان يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة . في بداية الأمر. هو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغْلبُ عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنّع كما حدث ذلك لاحقا وشهد فنُّ الكتابة نقلةً كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحي الكاتب. فقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل:"بدئت الكتابة بعبد الحميد ".وقال عنه جرجي زيدان في "تاريخ آداب اللغة العربية"(فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومن رسائل عبد الحميد المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة. وعندما قامت الدولة العباسية أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم ولا غرابة في هذا، لأن العمل في ديوان الرسائل أصبح مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، بل إنه غدا مؤهِّلاً للوصول إلى منصب الوزارة، ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد

البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم ممن أوصلتهم هذه الصنعة وهذا الفن إلى ما كانوا يطمحون إليه من نيل لأعلى المناصب فقد كان لا يصل إلى تولي ديوان الرسائل إلا من حسنت سيرته وذاعت شهرته و كان فارس بلاغة وصاحب إتقان و جودة في تدبيج و تطريز الرسائل. وقد بلغ فنُّ كتابة الرسائل أَوْجَهُ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنهما يمثلان الفترة الذهبية لهذا الفن.

وتنقل لنا الكتب أن« أول من وضع البريد، معاوية بن أبي سفيان ولم يكن البريد، عندئذ مثل ما نعرفه الآن في نقل الرسائل، وإنما كان مقصوراً على نقل ما يهم الدولة ورجالها، كما كان صاحب البريد في كل كورة، بمثابة عين للخليفة يكتب إليه بكل ما يقع عليه بصره، أو يصل إلى أذنه من أخبار.»1

وقد احتلت الرسائل في كل عصر حيزاً من اهتمام الأدباء والموظفين والأصدقاء والأحباء، ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى رسمية (ديوانية) وإخوانية. » 2

1. أنواعه :

أ. **الترسل الديواني**: تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل، الرسائل الديوانية نسبة إليه. وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق3 عن الرسالة الديوانية: «وهي الصادرة عن ديوان الخليفة، والأمير يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، بل إلى أعدائه أحيانًا منذرًا متوعدًا، كما ينبئنا الشريف الرضي في وصف رسائل أبي إسحاق الصابي: وصحائف فيها الأراقم كُمّن مرهوبة الإصدار والإيراد حُمْر على نظر العدو كأنما بدمٍ يخطُّ بهنَّ لا بمداد وتتنوع هذه الرسائل، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك.

ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا. «رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية، فكان الكاتب يضمنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدارين» 4

ـ موضوعاته: تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات عديدة ومتنوعة، فكان منها ما ذكرنا آنفًا أي رسائل الجهاد، وكان منها أيضا التي ذكرت الفتن والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد التشتت والتمزق الذي أصابها،«كما كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية، وقد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب والتطويل، وكان الكاتب يستهلها بالتحميد، وكثيرًا ما يُطيل في تحميده حتى ليشبه خطبة دينية قائمة بذاتها» 6

ويتصل بهذا اللون من الرسائل ما كتبه كتاب الدواوين« في التهاني بما تحقق من فتوحات وظفر على أعداء المسلمين، وكان استهلال رسائل التهنئة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب حتى لتكاد تقترب في هذه السمة من الخطابة الدينية التي تجري على هذه الطريقة من استخدام التحميدات والإكثار منها. وتضمنت الرسائل الديوانية أوامر الخلفاء بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم، وكانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة، ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون وأحوال الرعية والعمل على استقرار الأمور.»6

ـ خصائصه: عمل النقاد والأدباء القدامى على ضبط القواعد التي ينبغي للكتاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم، وتعتبر رسالة عبد الحميد إلى الكتاب الدستور الذي سنَّ هذه القواعد وأصبحت بذلك محترمة ومتبعة وقد. وضع عبد الحميد القواعد الفنية التي سار عليها كتاب الرسائل الديوانية بعده؛ وقد ظلت طريقته تُحْتذى لدى كثير من كتاب الدواوين في القرن الثالث للهجرة، وكان من هذه القواعد« التزام الكاتب في صدر رسالته بالتحميدات خاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد، وقد طالت هذه التحميدات في بعض الرسائل حتى صارت أشبه بخطبة دينية مستقلة مما جعل بعض القدماء يجتزئون بالتحميدات عن مضمون الرسائل»7كما تضمنت الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء و حجج الكتاب، واتجه بعضهم إلى تضمين أبيات الشعر، وبذلك صارت الرسالة الديوانية معرضًا لإظهار ثقافة الكاتب ومعارفه في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية .

ب ـ الترسل الإخواني: وفي مقابل الترسل الديواني، يوجد نوع آخر من الترسل يعرف بالترسل الإخواني، وهو« الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبّر بها كاتبها عن الشوق والحنين للأهل و الأصحاب. يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل: الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان ، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء . » 8

وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعًا هي: «التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، الشكوى، واستماحة الحوائج، والشكر والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار،و المداعبة. » 9 ولا نجد في طيات الكتب التي تحدثت عن هذا النوع من الرسائل أية إشارة إلى ما كتب في العصر الجاهلي، ولعل السبب يعود إلى قلة الكتاب في ذلك الزمن أو إلى عدم اهتمام الرواة بما كتب لانشغالهم بالشعر الذي روي منه شيء كثير وإلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك. وأما في صدر الإسلام« فإن ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي . صلى الله عليه وسلم . يعزي فيها معاذ بن جبل . رضي الله عنه . في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد الأموي من هذا النوع وما بقي منها فهو في النصح والإرشاد والعتاب والتعزية والاعتذار والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء. ومن هذه الرسائل رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين حين افترقا متخاصمين وأراد محمد مصالحته. » 10

والرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد«... كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من الرسائل وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة؛ فصوروا فيها ما يعتورهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح؛ وما يداخلهم من رضا وغضب، واتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والفراق، والاستعطاف والاعتذار وغير ذلك، وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم.»11

ـ موضوعاته: تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني وما يرتبط به من صداقة وأخوة، وعواطف نبيلة، وما يتصل بالصداقة كما عبرت عما كان بين بعض الأصدقاء من تبادل للهدايا على اختلافها، لكن يبقى موضوع الصداقة من أبرز الموضوعات التي اجتذبت الكتاب، فعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، وأشادوا بروابط الإخاء والمودة التي تنعقد بينهم، ومن الجوانب التي طرقها الترسل الإخواني الاجتماعية: اتسعت الرسالة الإخوانية للموضوعات المتصلة بالصداقة« كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أو الإئتناس، وعبرت كذلك عن بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب وزهور وخيول وسيوف وغيرها. واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم أو خير اختصوهم به أو معروف أحاطوهم به.» 11 ولم تقتصر

الرسالة الإخوانية على ما سلف ذكره من موضوعات بل امتدت إلى موضوعات أخرى لتشارك الشعر وفنون أخرى في ما طرقت من موضوعات وأغراض فـ«...تناولت موضوع(الاعتذار) باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة المتبادلة بين الكتاب؛ فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرًا له الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته، وطوع الكتاب الرسالة الإخوانية لموضوعات أخرى كالوصايا والتشفع فكان الكاتب يوجه رسالة إلى بعض إخوانه يسألهم فيها إنجاز أمر يتعلق به أو بأحد معارفه وأصحابه، وكانت هذه الرسائل أشبه ببطاقات التوصية وفيها يعمد الكاتب إلى الإيجاز وعرض مسألته في عبارات قصيرة. وكانت التهاني من الموضوعات التي شغلت مساحة من الرسائل الإخوانية لتعكس بذلك عادة اجتماعية وثيقة الصلة بالمجتمعات المتحضرة؛ فكثرت التهاني بالولاية وغيرها من المناسبات الاجتماعية السارة كالزواج والإنجاب والعودة من السفر والإبلال من المرض، وعكست هذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب، كما أظهرت براعة بعض الكتاب في التعبير عن معانيهم، وقد عمد الكتاب في تهانيهم إلى الإيجاز لتصبح رسائلهم أقرب إلى بطاقات التهنئة المتداولة في وقتنا الحاضر».12

وجدير بالذكر أن الرسائل الإخوانية لم يشترط النقاد في صوغها وبنائها شروطًا دقيقة ملزمة، وإنما أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد، لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب، مما جعل النقاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتاب الرسائل الإخوانية، كما يبينه أحمد بدوي «وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية، ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة»13 وهذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر أدبية وأكثر جمالاً من الترسل الديواني وجعل رسائله «أدخل في الأدب، وأقْبَلُ للتخييل والصور البيانية، والصنعة البديعية، تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم، وتنافس الشعر في جل أغراضه»14

ج ـ الرسائل الوعظية: وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي رسائل وعْظية، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

د ـ الرسائل التعليمية: بالإضافة إلى الأنواع المذكورة سابقاً، هناك نوع آخر من الرسائل خُصِّص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريخية، وهذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف ولا يدخل في باب الترسل، ومن أمثلته الرسالة القشيرية في التصوف وبعض رسائل أبي العلاء

المعرّي، مثل رسالة الغفران التي ألفها في عزلته رداً على رسالة وجهها إليه ابن القارح. ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة. وقد عُرف هذا اللون بالرسائل الأدبية، وكان الجاحظ أمير بيانه من غير منَازع. « وتُعَدُّ رسالته التربيع والتدوير التي كتبها في هجاء أحمد بن عبد الوهاب أشهر الرسائل الأدبية؛ إذ فتحت الباب لمن جاء بعده من الكتاب للإبداع في هذا اللون من الترسل في المشرق والمغرب والأندلس على السّواء. وهذا النوع من الرسائل أشبه ما يكون بالمقالات في العصر الحديث، و فيها يتناول الكاتب موضوعًا خاصًا أو عامًا تناولاً أدبيًا، مبنيا على إثارة عواطف القارئ ومشاعره، وهي لا توجه إلى شخص بذاته، وإنما يكتبها الكاتب ليقرأها الناس جميعًا. » 15

ـ خصائصه البنائية: بعد عرض أنواع الترسل، نتوجه بالحديث عن الخصائص البنائية لهذه الرسائل وما يشتمل عليه كل جزء من أجزاء الرسالة؛ من المقدمات إلى المضمون إلى الخاتمة وما ينبغي أن تشتمل عليه تلك الأجزاء.

أ . بنية المقدمات: عرف البناء الهيكلي للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي، منذ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب إلى موسوعة أبي العباس القلقشندي مرورًا بغيرهما من المؤلفات التي نظَّرت لهذا اللون الأدبي، وعن هذا الاختلاف يقول الكلاعي:« ونظرت . أعزك الله . في صور الرسائل واستفتاحاتها فوجدتها أيضًا تختلف»16 ومقدمات الرسائل . ديوانية كانت أو وإخوانية . تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على المُرسِل والمرسَل إليه، وتتضمن الدعاء، إضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام .

وتختلف استفتاحات الرسائل، ويختار الاستفتاح المناسب لمنزلة المرسل إليه فقد يذكر مقدمًا عن المرسِل بصيغة: لفلان من فلان. وقد يؤخر ذكره فيكتب: من فلان لفلان، وتكون في حالات أخرى بإيراد كنية المرسل إليه أو رتبته، غير أن كل الاستفتاحات كان يراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية وهي أول ما يطرق السمع من الكلام، فيكون داعية للانشراح وإثارة انتباه المتلقي، وقد كان يُلْجَأُ إلى المنظوم فتُبدأُ الرسالة بأبيات شعرية لكاتبها أو لغيره تدل على المضمون العام لها وتختصره في كلماتها، وكثيرًا ما يلجأ الكتاب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعها ومقدماتها كعملية ربط وحسن تخلص.

ب . بنية المضامين: ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم وبحسن تخلص لِطَرْقِ الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم، وغالبًا يقع حسن التخلص بصيغة: أما بعد وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة، وقد تنوعت المضامين في الرسائل بنوعيها . الإخواني والديواني . ومست مختلف

جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كتاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء، ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك. وفي الإخوانية يتبادل الأصدقاء الرسائل ويتطرقون فيها إلى الشوق والاعتذار والتهنئة بالزواج والمولود الجديد والتعزية والشكر والدعوة إلى حضور مناسبة من المناسبات وغيرها من الموضوعات. خاتمة الرسالة هي آخر شيء فيها وتكون في الغالب بلفظ "السلام"أو "السلام ورحمة الله تعالى وبركاته" وتكون مسبوقةً بالدعاء، كما تشتمل كثيرٌ من الرسائل على التأريخ باليوم والشهر والسنة كعلامة على انتهاء الرسالة وإن كانت بعض الرسائل تؤرخ في البداية، ويتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلومًا، ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنه آخر ما يتبقى في الأسماع

على أن هذه العناصر البانية للهيكل العام للرسائل غير ثابتة ومستقرة، فقد يخرج الكتاب عنها في بعض الحالات .

ـ عبد الحميد الكاتب: (نبذة عن حياته، وأسلوبه في الكتابة)

عبد الحميد الكاتب، هو عبد الحميد الكاتب بن يحيى الكاتب أشهر كتّاب العصر الأموي. بدأ حياته معلماً بالكوفة ثم انتقل إلى الشام واتصل بالأمويين ومنهم مروان بن محمد الذي جعله كاتبه، ولازمه حتى انتهت دولتهم سنة 132هـ فهرب مروان ومعه عبد الحميد إلى مصر وقتلا فيها.

ـ أول من وضع الأصول الفنية في النثر الفي :

عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة في تاريخ التراث الأدبي عند العرب، وحياته غامضة أشد الغموض، لأن الخلافة العباسية أسدلت عليه سحبا كثيفة من الإهمال والنسيان باعتباره الكاتب السياسي الأول لدولة بني أمية، و لقبه الجاحظ في كتابه المشهور – البيان والتبيين – بعبد الحميد الكاتب أو الأكبر ويعظم النقاد العرب من منزلته في الأدب العربي، فيقولون فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

و كان أبوه يسمى يحيى من سلالة غير عربية، من أهل الشام الذين دخلوا في الإسلام و تعلموا العربية. ولا يعرف متى ولا أين ولد، وإن كان من المرجح أنه ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك (76-96 هـ : 705-715 م)، في دمشق أو قريبا منها. وكانت الدولة آنذاك للأمويين وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق التي بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع، وأصابها من

عناية الأمويين ما صارت به قبلة الناس من كل صوب وحدب، فاتسع عمرانها وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم، و صارت موطنا رفيعا من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي.

تعلم عبد الحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب وتفوق فيهما، فسلس لسانه، وجادت لغته، وظهرت مواهبه في الأدب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة، وعمل في أول أمره معلما، وتنقل في البلدان، وكانت ثقافة الأدب في أيامه مزيجا من الثقافة العربية الإسلامية، ومن التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيام العرب وتاريخ العجم، وأحيانا يضاف إلى ذلك ثقافة أجنبية كالثقافة الفارسية أو الإغريقية أو الرومانية أو المصرية القديمة أو الهندية، وفي رسالة عبد الحميد إلى الكتاب ما يوضح لنا أصول الثقافة الأدبية قي عصره.

و قد تتلمذ عبد الحميد في الكتابة على أبي العلاء سالم الكاتب السياسي لهشام بن عبد الملك (105-125 هـ - 724:743م)، ويروي ابن النديم في « الفهرست » أن أبا العلاء نقل إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر وذلك يدل على تضلعه في الثقافة والأدب واللغة اليونانية، وكان أبو العلاء من الواضعين لنظام الرسائل الأدبية ولتقاليد الكتابة الفنية، وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم، وكان صهرا لعبد الحميد، إذ كان زوج أخته. وكان جبلة بن سالم يتولى الكتابة السياسية في ديوان الرسائل لهشام أيضا وصديقا حميما لعبد الحميد الكاتب، وكان جبلة يعرف الفارسية، وهو أحد المترجمين منها إلى العربية، كما كان صديقا حميما لعبد الحميد ابن المقفع (106-142 هـ : 715-760 م) وابن المقفع فارسي الأصل وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللسان العربي كذلك، و ذلك كله يدعنا نرجح أن عبد الحميد إلى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية و الفارسية.17

و ذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب وعرفت مواهبه الأدبية وثقافته الكثيرة، فقربه إليه الأمير الأموي مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينية، هذا الإقليم الغني الممتد الأطراف الذي كان يشمل بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمنية، وكان مروان قد تولى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد مروان الأموي. ولم يلبث الأمير مروان أن قاد جيشا كثيفا من أبناء الجزيرة وأرمينية وزحف على الشام فاستولى على أكثر مدنه ثم زحف على دمشق و دخلها و تولى أمور الخلافة الأموية عام (126 هـ، 744 م(

كان عبد الحميد يتولى شؤون ديوان الرسائل للأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينية، وصار وثيق الصلة به وازدادت مكانته عنده ومنحه الأمير ثقته الكبيرة، ولما تولى مروان الخلافة عيّن عبد

الحميد رئيسا لديوان الرسائل في دمشق والكاتب الأول للخليفة الجديد، وصدرت عنه رسائل أدبية وسياسية نالت شهرة فنية كبيرة.

مقتله:.بعد معركة الزاب وهزيمة مروان، و معه عبد الحميد بن يحيى الكاتب، كتب هذا العبقري العظيم إلى أسرته رسالة مؤثرة ، كلها بكاء و دموع وحيرة ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الأحداث إلاّ القتل أو الأسر، وهو يودع أسرته فيها وداعا مؤثرا.

ألح مروان على صديقه عبد الحميد أن يهرب فقد ينجو من القتل، أو أن ينضم إلى أعدائه من العباسيين. فقد يستطيع أن يقدم خدمة للخليفة المهزوم، وقال له مروان: إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك، فاستأمن إليهم وأظهر الغذر بي، فبذلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي قال عبد الحيمد: إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، و لكني سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. و لما ضاق بهما الأمر دعاه مروان إلى الهرب وأصرّ مروان على رأيه، فاختفى عبد الحميد هاربا واختفى عند صديقه ابن المقفع.

كان عبد الله بن المقفع في العراق يكتب لداود بن هبيرة حاكم العراق من قبل مروان، و كان ابن المقفع يزور دمشق، وعبد الحميد الكاتب أحيانا إذا سار إلى عاصمة الأمويين مع أميره العظيم .. ولما اكتسحت جيوش العباسيين العراق قتلوا داود وأهله فيمن قتلوهم ونجا ابن المقفع في البحرين، ولجأ إليه هناك صديقه عبد الحميد الكاتب وأقام عنده في داره ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه ففاجأه الطلب وهو في دار ابن المقفع، وهنا تظهر عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين الذين ظلا على الأجيال حتى اليوم فخرا للفكر العربي، قال الجند وهم شاكو السلاح : أيكما عبد الحميد ؟ فقال : أنا كل منهما : إشفاقا على صديقه، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا فإن لك منا علامات فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات، فلم يجد الجند مناصا من ذلك، و فعلوا وعادوا بأوصاف عبد الحميد كاملة فقبضوا عليه وقتل عام 132 هـ : 750 م و هكذا خسر الفكر والأدب العربي أعظم رجاله وأروع شخصية يعتز بها تراثنا العقلي على مد العصور وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استمهله القدر عشرة أعوام قتل عام 142 هـ : 760 م في عهد الخليفة المنصور العباسي.

ـ قيمته الأدبية :

كان عبد الحميد عبقرية كبيرة وذهنا لماحا، وذكاء خصبا، وأدبا جما، ونبلا موفورا، وملكا في ثياب عربي، مع ثقافة واسعة، وعلم بسياسة الدولة وشتى أمورها، وأدرك لكل مسؤوليات الرجل السياسي

وواجباته. ومع قدرة فائقة على تملك ناحية البيان وزمام التأثير، وروعة التعبير ، وكان عبد الحميد يقدر على تصور المعنى تصويرا بارعا لا يقدر عليه أحد من الكتاب ...

إن عبد الحميد كان جديرا أن يعد في عصره وبعد عصره شيخ الكتاب وإمام المنشئين والمترسلين في الأدب العربي، فقد كان أمة وحد في بلاغة العبارة ورصانة الأسلوب ودقة المعاني ولطفها وعظمة الخيال وروعته وشدة التأثير وامتلاك ناحية البيان، وكان يفصل جمله تفصيلا، ويزنها أحيانا بقليل من السجع ويحليها بألوان من الوشى الفتي المطبوع.

و يرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد أن عبد الحميد هو الذي ظهر على يديه النثر الفني في الأدب العربي، وهو الذي أنشأ الكتابة الفنية إنشاء في اللغة العربية، وهو الذي ترك آثارا كبيرة في نهضة الكتابة وتحولها إلى صناعة فنية لها منهاجها وأصولها وتقاليدها الأدبية .

وقد ساعد عبد الحميد على إحداث هذا التأثير الأدبي الكبير الذي ظهر في صورة مذهب فني جديد في الكتابة ما يلي:

1. نضج الثقافة العربية الإسلامية من علوم الدين واللغة والأدب، وإقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها واحتذاؤها حذوهم.

2. رواية أصول الأدب العربي شعرا ونثرا وخطابة ووصاية وحكما وأمثالا وسجعا و قصصا وإخبارا وأنسابا، والعكوف على استظهارها كذلك، ومحاكتها وعلى استظهار الشعر الجاهلي والإسلامي كذلك، وخطب الرسول ووصاياه وخطب الخلفاء والصحابة وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم، حتى عصر عبد الحميد، وبخاصة خطب الإمام علي بن أبي طالب وحكمه.

3. أثر القرءان الكريم والحديث النبوي في تهذيب الألسنة وترقيق الطباع ووضوح الملكات.

4. اتصال العقل العربي بالآداب الأجنبية وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم.

5. العناية بكتابة الرسائل، وجعلها صناعة فنية عتيدة إلى جانب اتساع أعمال الدولة، وديوان الرسائل الذي كان يتزعمه كبار الأدباء والكتاب ممن أنشأوا الرسائل البليغة على ألسنة الخلفاء والأمراء، وقد استطاع عبد الحميد أن يتصرف في نثره الفني تصرفا ذكيا يجمع بين طرفي الإيجاز والإطناب، ويراعي شتى الأحوال والمقامات، وكان لقدرته على الإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه فيطنب في الإخبار بالفتوح والحث على الجهاد وفي الوعد والوعيد ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء ..

كما أطال في فواتح رسائله الأدبية وخواتيمها بما يعد جديدا في هذا العصر، كالإتيان بكثير من التحميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها الحمد لله، فاصلا بينهما بأما بعد، وغير ذلك. وبهذا عد عبد الحميد من أوائل من وضعوا الأصول والتقاليد الفنية في النثر الفني العربي وفحالته الأدبية. وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية التي ينشئها الكتاب البلغاء فتحمل ما في قلوبهم من مودة وإخاء، وتصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات، وتعبر عما يتردد في نفوسهم من آراء وأفكار في أسلوب رائق و لفظ جميل وتصوير مؤثر..

الهوامش:

1ـ القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، الموسوعة الشعرية المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث،2003، ص301.

2ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985م، ص196.

3ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ، 1972م، ص223.

4 ـ فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991م، ص18.

5ـ نفسه ص24.

6المرجع نفسه، ص26، 27.

7نفسه، ص30.

8 ـ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مرجع سابق،ج8، ص126.

9ـ ينظر المرجع نفسه،ج9، ص 5 وما يليها .

10 ـ عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، دت، ص34.

11ـ فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية،1991م، ص35.

12 ـ المرجع نفسه، ص 35، 36 .

13ـ راجع المرجع نفسه.

14 ـ أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر،القاهرة،1964، ص32 .

15 محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المدار الإسلامي،ط1، 2004م،ص 150،149 .

16 ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ 1972م، ص123.

17 ـ راجع، زكى مبارك في كتابه (النثر الفني)، وأيضا طه حسين في كتابه(من حديث الشعر والنثر(